بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

شكلت الحماية بالمغرب في مطلع القرن العشرين إطارًا لصحوة فكرية جديدة، بعد صحوة القرن التاسع عشر، التي بلورت أدبيات إصلاحية كانت نسخا لتراث السلف دون قيمة مضافة، تنزيلاتها المخزنية على أرض الواقع، لم تكن مجدية وقادت البلاد والعباد إلى المصير المحتوم، مصير الحماية، حيث قدم الغرب إلينا بخيله ورجله، وأصبح أمرا واقعا عيانا لا خبرا، ذلك الواقع الذي كان مستفزا لنخب عالمة بلورت هي الأخرى أدبيات إصلاحية، من شأنها النهوض من التخلف والجمود، لكن هذه المرة بمعية المحتل وبإيعاز منه، في شكل مؤلفات ومحاضرات (مسامرات) بأندية ثقافية أنشأتها الحماية خصيصا لهذا الغرض، غرض احتواء النخب وتدجينها، خاصة النخب الحضرية بعدما أبدى الأهالي في الأرياف عن ردود فعل عنيفة ومقاومة.

رأت النخب العالمة في الحماية فرصة لتحقيق التقدم والرقي على النموذج الفرنسي، في ضوء المضامين الذي أعطاها ليوطي للحماية عبر إكسابها أبعادا حضارية وتنموية، وفي ضوء الاحترام الذي أبداه لهوية المغاربة الثقافية والدينية، والظهور بمظهر المخلص والباعث على الرقي والتطور، وإخفاء الوجه الحقيقي، ومن هنا لم تجد هذه النخب حرجا في التعامل مع الحماية ثقافيا من خلال الانخراط في مشروعاتها الثقافية كتأسيس الأندية التي هيأت أجواءا غير مسبوقة وغير مألوفة لدى هذه النخب في التعبير عن أرائها والانفتاح على آراء الآخرين.

لقد كان طموح المسامرين والمحاضرين كبيرًا في الإصلاح والتحديث في ظل وضع يتسم بالجهل والأمية، وعبروا في مسامراتهم عن آراء إصلاحية في غاية الأهمية من حيث سرد أمجاد الأمة المغربية وتراكماتها في مجال الشعر والأدب، كما عبروا عن تطلعاتهم في إصلاح التعليم والتجارة، وتأهيل الأهالي، كما نقلوا تجارب الغرب في النهضة والتطور من خلال رحلاتهم، وأشادوا بتجارب فرنسا التنموية والنهضوية في الأقطار المحتلة كتونس والجزائر.

شكلت الأندية الثقافية منابر لمجموعة من العلماء لطرح أفكارهم الإصلاحية كالحجوي الأب والحجوي الابن، والنميشي، وبوشعيب الدكالي، وعبد الواحد الفاسي، ومعمر الزواوي، وعبدالسلام السرغيني، والرندي وغيرهم، تلك الأفكار التي يؤطرها البعض بالفكر السلفي، أفكار تدافع عن الهوية والعروبة والتراث، وتمجد مشاريع الحماية في التحديث والإصلاح في شخص ليوطي وزمرته بول مارتي وجورج هاردي، اعتقادا منهم بحسن نوايا الفرنسيين وتصريحاتهم المطمئنة، والتي كانت بمثابة ذر الرماد في العيون من أجل التأسيس للحماية والترسيخ لها.

تمحورت المسامرات حول الإشادة بالماضي المجيد للمغرب والعروبة والإسلام من خلال الحديث عن الشعر العربي خاصة الجاهلي منه، والشعر المغربي عبر التاريخ، والكتابة العربية والمكتبات، من خلال مسامرة الطرفة الأدبية، ومسامرة الشعر والشعراء، ومسامرة الكتابة والكتاب، وحول نقد الفكر الصوفي والطرقي، من خلال مسامرتي البدعة والسنة، والعلم والعمل قبل الإسلام وبعده، وحول مرئيات العلماء الزائرين للديار الأوروبية أو المستعمرات الفرنسية، من خلال مسامرة الرحلة الأوروبية، ومسامرة حديقة التعريس، وحول التعليم والتعلم والعلوم وخاصة علم التاريخ من خلال مسامرة العلم وإلا الموت، ومسامرة مبادئ علم التاريخ، وحول الأخلاق والقيم الإسلامية, وحول بعض العلوم الحقة من خلال مسامرة رسو الأرض بالجبال.

لقد انحرط علماء مكناس والدار البيضاء والرباط في اندية المسامرات، وخاصة علماء فاس في نادي المسامرات الذي كان ينظم أسبوعيا محاضرات مسائية (مسامرات) شكلت بالنسبة إليهم مسرحا لعرض أفكارهم، وقد شكلت هذه الأفكار مجتمعة تيارا فكريا إصلاحيا يربطها خيط ناظم يتمثل في العودة نحو السلف والتوجه نحو الغرب في إطار من التوافق بين الأصالة والحداثة.

بعد فترة التأسيس للحماية في شخص ليوطي وانتهاء مهمته، جاء تيودور ستيغ ١٩٢٥- ١٩٢٩ الذي كان يعتبر الأرض مصدرا لترسيخ الحماية، فعمل وسعا بمصادرة الأرض، وجاء لوسيان سان ١٩٢٩-١٩٣٣، الذي عرف عنه السعي لتفتيت وحدة المغاربة من خلال الظهير المشؤوم، ليأخذ الفكر الإصلاحي بعدها بعدا نضاليا من خلال مخرجات التعليم الفرنسي والأهلي.

لبسط هذا الموضوع، قمنا بتقسيمه إلى ثلاثة فصول:

الأول: حول السياق العام للمسامرات حيث تناولنا فترة ليوطي من الحماية، وهي فترة تميزت بالتأسيس للحماية من حيث حصرها في جانب المراقبة وإضفاء الطابع الإصلاحي عليها، والانشغال بالمعرفة في إصلاح أنظمة التعليم وبناء المدارس والثانويات وإقامة المنتديات العلمية لكسب النخب العالمة التواقة للإصلاح والتحديث.

الثاني: حول المسامرات والمسامرين حيث تناولنا التعريف بالمسامرين ونماذج من المسامرات التي قمنا بقراءتها وإعطاء ملخصات بشانها.

الثالث: حول الفكر الإصلاحي الكامن في هذه المسامرات، حيث تناولنا البعد السلفي لهذا الفكر من حيث دعوته لإصلاح التعليم، الاهتتمام بالعلم والتعلم، وتنقية الفكر الأهلي من الخرافة والبدع. وعقد مقارنة بينه وبين ما سبقه لمعرفة مدى الاستمرارية والتراكم في المسار الإصلاحي.

يسعى هذا البحث المتواضع إلى تسليط الأضواء على فترة حساسة من تاريخنا الوطني، وهي فترة التأسيس للحماية، فترة تحتاج للكثير من الاهتمام من قبل المؤرخين للكشف عن جوانب غامضة، أو محرجة لازالت آثارها وصداها قائمة إلى الآن، حيث احتضان الحواضر ونخبها للحماية، والتنسيق معها، كما يسعى أيضًا للكشف عن الأطروحات الإصلاحية للنخب العالمة التي لم تكن ترى في التنسيق مع الحماية حرجا لبلوغ طموحاتها في الإصلاح والتغيير، في ظل اليأس من المخزن الذي لم يبد عن أي مبادرات في هذا المجال.